قطار يافا

لم أستطع النوم مثلهم.. فقد نام معظم راكبي القطار من شباب وأطفال وعجائز. ربما منهم من أتى من مسافات بعيدة أكثر مني فأجهدهم السفر فلم يستطيعوا مقاومة جفونهم واستسلموا للنوم. لكنهم ليسوا وحدهم، فابنتي وحفيدتي قد نامتا أيضًا، كانتا تجلسان أمامي وتغطّان في نوم عميق فوضعت سترتي عليهما، لا بأس ببعض النوم فقد كان لدينا كثير من المغامرات في انتظارنا.

أما أنا فلم أستطع مقاومة إطالة النظر من نافذة القطار لأرى سهول وأراضي المدن الفلسطينية.

ولم أستطع مقاومة التطلع لوجوه الراكبين، الملامح المختلفة التي تبدو خليطًا من الدول العربية والأجنبية لكن أصلها فلسطيني.

القطار كان يسير بسرعة جيدة، فلا هو بالبطيء الذي يشعرك بالملل ولا هو بالسريع فيفسد عليك جمال الرحلة.

بالطبع أردت الوصول إلى وجهتي.. يافا.. لكن الطريق إليها جميل مثلها.

توقف القطار في محطته التالية، ركب بعض الناس وزاد العدد بالعربة، من بينهم كانت امرأة في مثل سني تقريبًا مع زوجها المسن وولديها الشباب.

جلسوا جميعًا في أربعة مقاعد متقابلة مقاربة لمقاعدنا. ثم بعد أن تحرك القطار بقليل، قامت المرأة وتحركت نحوي، ثم قالت:-

--"هل تسمحين لي بالجلوس بالمقعد المجاور لكِ إذا كان شاغرًا، لكي يرتاح زوجي وأولادي في مقاعدهم قليلًا."

أجبت وأنا أشير للمقعد:-

-"بالطبع، لقد حجزنا هذا المقعد كمقعد إضافي. فإمكانك الجلوس معي لنتسلى معًا طوال الطريق."

ابتسمتْ وجلستْ:-

--"شكرًا لك، فزوجي يحتاج أن يمد ساقيه بعض الوقت لأن الجلوس لفترات طويلة يرهقهما كثيرًا، فآسفة حقًا لإزعاجك."

-"لا عليك، ما دام المقعد فارغًا لمَ لا نرتاح جميعًا."

ابتسمتْ امتنانًا ثم قالت وهي تشير للنائمتين:-

--"هل الفتاتان معكِ؟"

-"نعم، ابنتي وحفيدتي."

قالت مذهولة:-

--"ما شاء الله، لا تبدين جدّة."

ضحكتُ وقلت لها:-

-"كل من يرانا يقول ذلك."

--"حفظهما الله."

-"لقد نامتا بعد أن ركبنا القطار مباشرة، لكني لم أستطع أن أنام وأفوت رحلتي بالقطار والعبور على المدن واحدة تلو الأخرى."

--"هل هذه زيارتك الأولى لفلسطين بعد التحرير؟"

-"نعم، لقد تأخرنا قليلًا لاتخاذ هذا القرار، فنحن نعيش في عمّان، لكن كيف لا نأتي لزيارة بلدنا الأول."

--"إذن أنتِ من أصل فلسطيني؟؟"

-"نعم."

نظرتْ إلى السلسلة المعلقة في صدري وقالت:-

--"كيف لم ألاحظ المفتاح؟ كان هذا يغني عن السؤال."

تحسستُ المفتاح المعلق في رقبتي، وأجبتها:-

-"ذلك المفتاح صار إرثًا في العائلة. من جدة جدتي التي خرجت من فلسطين مع جدي تعلق مفتاح بيتها في رقبتها بسلسلة من خيط. لترثه بعدها ابنتها بعد أن استقر بها المقام في عمّان لتبدل الخيط بسلسلة من فضة وترثه جدتي لتبدلها بسلسلة من ذهب حتي وصل إلي وحفظته بقلبي قبل رقبتي أملًا منا جميعًا في العودة."

أزاحت المرأة خمارها وأخرجت من تحته مفتاحها:-

--"وهذا مفتاحي أيضًا، لكنه بقي في الخيط عبر السنين."

ابتسمتُ وأومأتُ برأسي، فقالت:-

--"إذن هذه هي المرة الأولى التي تركبين فيها هذا القطار."

-"في الواقع هي المرة الثانية. فقد ركبنا المرة الأولى منذ عدة أيام من عمّان، ليتحرك بنا إلى مدينة أريحا ثم القدس. وعلى الرغم أن وجهتنا لم تكن القدس إلا إننا بالطبع لم نستطع مقاومة أن نبقى بها لعدد من الأيام. كيف نعبر القدس ولا نزور الأقصى وكنائس القدس ولا نستنشق عبير الماضي ونسيم الحرية. فقررنا أن ننزل من القطار هناك. كانت أيامًا جميلة، الأقصى يتزين بألوان العلم الفلسطيني والشوارع تمتلئ بالزينة، والناس تتلون وجوههم بألوان السعادة، والأطفال يلعبون دون خوف. فكأن المدينة تتطهر من الدنس وتُغسل بماء التحرير. ثم بعد انتهاء إقامتنا هناك ركبنا القطار في رحلة جديدة من القدس إلى مدينتنا."

--"معك حق، من يستطيع أن يعبر القدس ولا يقيم بها."

-"هل ذهبتِ إليها بعد التحرير؟"

أخذت نفسًا عميقًا وهامت بعينيها بعيدًا وقالت:-

--"هيييه، مرات ومرات. فزوجي مغرم بالأقصى والصلاة فيه. حلم.. حلم تحقق. الأيام التي تلت تحرير القدس تكتب في التاريخ وتكفيه. هي من أعظم المدن وكان فتحها أعظم فتح."

استفاقت من هيامها ثم التفتْ إلي بكامل جسدها وأكملت بحماس:-

--"لكن لا يكفي أن تزوري القدس فقط، يجب أن تزوري كل منطقة ومدينة بفلسطين من النهر إلى البحر. تستجمين على بحيرة طبرية وتقضين وقتًا على البحر الميت، وتأكلين المسخن بجنين وتذهبين لنابلس لتحلي بكنافتها وتشوين السمك على شواطئ يافا وتختتمين الجولة بالاسترخاء في عكا."

ضحكتُ كثيرًا للجولة السياحية التي أخذتْ ترويها لي ثم قلت:-

-"كل هذا!! هذا يستلزم وقت وجهد الشباب، ليس لعجوز مثلي."

--"لا تقولي ذلك. فأنتِ لا تزالين صغيرة حتي لو لديكِ حفيدة. لكن الرحلة التي أخبرتك بها يقوم بها الآن كثير من الفلسطينيين والعرب في الفترة الأخيرة، بعد استقرار الأمور نسبيًا، من خلال هذا القطار. لذا تجدينه عندما يمر هنا في فلسطين يهدّئ من سيره ليعطي فرصة للاستمتاع بالعبور على المدن. ألم تخبركِ بتلك الرحلة الجمعية التي تلقت دعوتكِ للعودة للوطن؟"

أجبتها مستغربة:-

-"جمعية؟! أي جمعية؟"

--"هناك العديد من الجمعيات والمنظمات الآن تتلقى الفلسطينيين العائدين للوطن للبحث عن حقوقهم وممتلكاتهم لتعيد لهم أرضهم التي سُلبت منهم. وأول شيء يقومون به معهم هو عرض تلك الرحلة عليهم للتمتع بالمدن الفلسطينية وجمالها بعد التحرير."

-"ما شاء الله! لم أعلم هذا. يبدو أن هناك أمورًا كثيرة سأعرفها بنفسي هنا."

--"يبدو أنهم لم يعرفوا برحلتك إلى هنا بعد، إلا كنتِ وجدتهم في انتظارك في أول محطة للقطار. لكن لا تقلقي سيدقون بابك قريبًا. إنهم يشمون رائحة العائدين. وسيعرضون عليكِ الرحلة."

-"تلك الرحلة تحتاج إلى وقت طويل للاستمتاع بها، ووقتي هنا لن يكفي."

--"وقتك؟ وما مشكلة الوقت؟"

-"إنني قد أتيت هنا في زيارة لأيام قليلة."

--"تقصدين أنك لم تأتِ للإقامة هنا؟ ألم تأتِ للعودة؟"

-"حتى الآن لم نتخذ قرارًا بالعودة، فلدينا مصالح وأعمال كثيرة في عمّان، لن نستطيع تصفيتها سريعًا، كما أن لي ولدين يدرسان في جامعات حول العالم، وابنتي وزوجها وعملهما، وحفيدتي ومدرستها، فالأمور تحتاج إلى ترتيب كبير."

--"فهمت، الله يهديك للقرار السليم. لكن لم تخبريني بعد، أي من المدن إذن هي وجهتك هنا في فلسطين؟ أم أنكِ ستكملين مع القطار إلى القاهرة؟"

ضحكنا معًا، ثم قلت:-

-"لا، بالطبع لدي وجهة في فلسطين، يافا بإذن الله."

--"إذن هي مدينتكم قبل التهجير؟"

-"نعم، ولا يزال يسكن بها أفراد من العائلة، لم يتركوا بيوتنا وأراضينا، فجد جدي كان له أخ لم يخرج معه من فلسطين ومكث بيافا. عشت طوال عمري أسأل نفسي، من منهما اتخذ القرار الصحيح."

--"لا أحد يملك الإجابة، أكان الخير في التمسك بالأرض والعيش عليها لتجدي أطفالك يكبرون بينهم ويتعلمون في مدارسهم ويتحدثون لغتهم. أم ترك الأرض لهم مقابل الحفاظ على الهوية. وطن من دون فلسطيني، أم فلسطيني من دون وطن."

-"لكني لا أنكر أن أهلي بيافا حافظوا كثيرًا على هويتهم وأولادهم."

--"أنتِ لا تعيشين معهم ولا تعلمين، إن أكثر من في وضعهم نسوا أنهم فلسطينيون أو عرب، ويحتاجون لوقت طويل لزرع فكرة الوطنية والقومية العربية داخلهم. بل للآسف ربما تجدين منهم من يكون له ولاء للاحتلال وصاروا عملاء وخونة."

-"أعتقد أننا فقط نحتاج أن نشعر أنهم فلسطينيون مثلنا ونشعرهم بذلك حتى لا تتكون فجوة بيننا وبينهم لا مصلحة لأحدٍ فيها. نشعرهم فقط أنهم إخوتنا."

قالت وهي تشعر ببعض الحرج:-

--"أنا لم أقصد عائلتك بالتحديد، فحديثي بشكل عام."

-"لا عليكِ، أنا أفهم قصدك. ولكن أخبريني أنتِ.. ما القرار الذي اتخذتموه أنتم في عائلتكم؟"

--"نحن كنا نعيش في مخيم للاجئين بغزة، رضي أجدادي بحياة المخيم بعد التهجير من مدينتهم."

-"يبدو أن حياتكم كانت صعبة."

--"صعبة! صعبة هي كلمة سهلة لوصف ما عشناه. وحتى الآن لا نزال نعاني، فبيوتنا لم يعد لها وجود من الأساس لنستطيع استردادها."

ساد الصمت بيننا قليلًا ثم عاودتْ الحديث..

--"هل تعودين إلى يافا لتطالبي بحقكم في الأرض والبيت؟"

تفاجأت من كلامها وتلعثمت في الرد وحاولت استجماع الكلمات لأفهم السؤال..

-"ماذا تقصدين، لم أفهم؟"

--"أليس لك حق وميراث شرعي في الأرض والبيت اللذان تركهما جد جدك وأصبحا تحت وصاية أحفاد أخيه؟ من المؤكد أن كل ما سُلب من عائلتكم أعيد لهم الآن."

-"صدقيني أنا لم أفكر بهذا الأمر، فكل ما أريده من تلك الزيارة أرضًا تحضنني، لا لأمتلكها أو أمتلك بيتًا أو أستحوذ عليه."

--"كل من يأتي في البداية يدفعه نفس الدافع ثم يطالبون بحقهم وميراثهم."

حاولتُ تغيير دفة الكلام فقلت:-

-"زوجك يبدو رجلًا طيبًا."

--"ومكافحًا أيضًا، لقد كان أسيرًا لسنوات طويلة في سجون الاحتلال، لم يعش مع أولاده بقدر ما عاش في سجنه. أفنى عمره دفاعًا عن حرية بلاده وقضيتها."

-"فلسطيني بحق، بارك الله لك فيه."

--"نعم ولكن من يُقدّر. هو ومن في مثل وضعه من الأسرى المحررين لم ينالوا شيئًا بعد التحرير. كل ما أعطوه لهم بعض دورات التأهيل النفسي والاجتماعي ليستطيعوا العيش بين الناس مجددًا. ولكن مهما فعلوا لن يستطيعوا أن ينسوهم ما تعرضوا له من تعذيب ومشقة في سجون الاحتلال، هل تنسيهم تلك الدورات الذل والليالي الطويلة التي انقطع فيها أملهم في النجاة إلا من الله."

-"بالطبع وحده لن يتجاوز الأمر، لكنك معه وأيضًا الأولاد، باستطاعتكم جميعًا مساعدته."

--"وكيف نساعده ونحن أنفسنا لم نستطع تخطي ما عشناه، لم نستطع تخطي حياة المخيم والليالي الباردة وشقاء المعيشة. ولداه هذان اللذان ترينهما لم يلعبا في طفولتهما بالألعاب البلاستيكية كباقي الأطفال. بل كانا يتدربان على البنادق ومن قبلها القذف بالحجارة. من يعوض لهما طفولتهما ومن يعوض لي شبابي وشباب زوجي اللذين ضاعا في البعد عن بعضنا."

-"أعلم أن الوضع ليس بهين، لكن الزمن كفيل لينسينا جميعًا."

--"جميعًا؟! لماذا تجمعين بيننا؟ هل تساوين حياة اللاجئين في المخيم بحياة أناس مثلكم، عاشوا في بلد عربي وجمعوا الأموال ليصبحوا من أغنى الناس على الأرض. هل تساوين الحياة الرغدة والنومة الهانئة الأمنة بحياة الشقاء التي عاشها اللاجئ في المخيم بين النار والقصف. إننا لسنا في نفس كفة الميزان لتجمعنا كلمة جميعًا."

قالتها وهي تُخرج المنديل من جيبها، لم تعجبني لهجتها في الكلام عنّا لكن الدموع التي كانت تنهمر من عينيها جعلتني أتعاطف معها وأتمالك نفسي.

ربتُ على كتفها وقلت:-

-"أنا أتفهم مأساتك، لكن نحن أيضًا ضحينا كثيرًا ببعدنا عن الوطن، كنا نموت كل يوم، يوم خرج جدي وجدتي لم يكن معهما شيء، وكل ما رُزقنا به بعد ذلك كان اجتهادًا منا. ربما كان أجدادي ومن بعدهم أبي يحاولون إلهاء أنفسهم في عملهم حتى يحاولوا نسيان تغريبهم عن الوطن ولا يفكروا فيه أبدًا وفي يأسهم من حل القضية. وربما ما رزقنا به الله من أموال وسعة العيش كان تعويضًا لنا عن غربتنا."

قالت غير مقتنعة:-

--"ربما."

حاولت التسرية عنها فقلت:-

-"ثم من يعلم، ربما يصفي الأثرياء الفلسطينيون أعمالهم حول العالم ويأتون إلى هنا بأموالهم وثرواتهم ليستثمروها في بلدهم الأول. ويكون هذا من تدبير الله لنا لتقوى دولتنا اقتصاديًا."

--"أتمنى أن يكونوا عند حسن ظنك. ولا يكونوا كالفاسدين الذين يحكموننا الآن والذين يسعون للحكم."

-"فاسدين؟!"

--"بالطبع، إننا واقعون دائمًا بين الفاسدين باسم الوطن والفاسدين باسم الدين، ومن بينهم لا نرى خطر العملاء والخونة."

-"ألديك مشكلة مع من يحكم أما مع من يعارض الحكم؟"

--"لدي مشكلة مع كل من يسعى لمصالحه الشخصية وليس مصلحة العامة والوطن، مع كل من يصل للحكم ليحرم غيره حريته ومع من يسعى للحكم ليفرض رأيه وخطته. ليبقى الانقسام بيننا للأبد وكأن مكتوبٌ علينا ألا نجتمع."

-"أرى أنك تبالغين، الأمر لن يصل للانقسام، هذا الوطن المُنتشي بالتحرير لن تنتهي به الأمور لذلك أبدًا."

--"تلك هي المشكلة، أننا مازلنا نعيش الانتشاء بالتحرير ولم نضع قبله خططًا لما بعده."

-"وهل كنا نفكر قبل التحرير في شيء آخر أو يشغل بالنا غيره؟"

--"لا، وهذه هي النتيجة. وضعنا التحرير نصب أعيننا ولم نضع في حسباننا "ماذا بعد"، فصرنا مشتاتين وليس لدينا خطط واضحة لتعمير بلادنا، كل ما قام من بعد التحرير بعض الإصلاحات والمشاريع الاقتصادية الصغيرة، اللهم إلا مشروع هذا القطار الذي صُرف على حفل افتتاحه أكثر مما صرف علي تشييده."

-"لا تستعجلي، الأمور تحتاج إلى وقت."

--"وقت؟! وهل يترك لنا العملاء والخونة من وقت. إن خطر عملاء الاحتلال أشد من أي خطر. يتسربون كالنمل من بيننا. ولا نعرف إن كانوا من أهل البلد أم من العائدين أم من العرب الذين يستثمرون أموالهم هنا أم من السياسيين أنفسهم الذين وصلوا لسدة الحكم. لذلك لم يسمحوا لأصحاب القضية الحقيقيين كزوجي بمشاركتهم في الحكم وقاموا بتهميشهم سياسيًا بحجة تأهيلهم النفسي. أمور كثيرة معقدة ولا تزال مخفية، وإن لم تعتدل، فنحن على أبواب فتنة."

-"فتنة؟!"

--"نعم، بل وحرب أهلية. إن لم تأتِ الفتنة من الداخل فمؤكد أن هناك من سيشعلها من الخارج. فهل تعتقدين أن من تم إجلالهم من اليهود سيسكتون. بالطبع سيحاولون استرداد ما يرونه حقهم هنا. والطريق الأسهل هو إيقاعنا جميعًا في مصيدة الفتنة أي كان شكلها وأسبابها."

-"لا أرجوك لا أريد أن أتخيل هذا المصير."

--"ولا أنا، لكن هذا هو السيناريو الأسوأ. وأخشى ما أخشاه أن يكون هذا سببًا لسيطرة القوى الخارجية علينا وفرض وصيتها على الشعب. باعتبار أن الشعب لا يعرف كيف يحكم نفسه وغير مؤهل بعد لأمور السياسة. وندخل في استبداد جديد. من احتلال إلى استبداد. ربما يتمنى الناس وقتها عودة الاحتلال."

-"لا لا، لماذا كل هذا؟ أنتِ فقط تتمنين الأفضل للوطن وربما هذا يجعلك تفكرين في مخاوفك أكثر من اللازم. دعي الغد للغد، ولنصبر والله معنا. الله القادر الذي قدرنا على التحرير يعطينا القوة لبناء دولتنا والاستقلال الحقيقي بها."

عندما أنهيت كلامي كان القطار يدخل حدود محطة جديدة. فقالت:-

-"هذه محطتنا تقترب، يجب أن أتحرك لأوقظ زوجي لأنزل معه ومع أولادي. أرجوكِ لا تغضبي من كلامي. أنا أعلم أن ما قلته كان صادمًا لكِ، فإنكِ لم تأتِ للمطالبة بأرض أو أرث أو استثمار أموال أو مصلحة سياسية أو غيرها، إنما جئتِ حالمة بالعودة. تحملين حلم العودة في قلبك كما تحملين طفلًا صغيرًا بين ذراعيك تخشين عليه من الهواء الطائر حوله. ولكن الواقع ليس كما نحلم دومًا."

أومأت برأسي متفهمة وحزينة.

قامت من مكانها ومدت كفها نحوي وقالت:-

--"أتمنى لك رحلة سعيدة ووصولًا أمنًا إلى يافا."

صافحتُها وابتسمتُ.

ذهبتْ إلى زوجها وولديها في اللحظة التي توقف فيها القطار في محطتهم. نزلوا جميعًا مع من نزل وأنا أنظر إليهم من النافذة وهم يسيرون للخروج من المحطة وزوجها يستند على كتفها ويعرج في السير.

تحرك القطار بعد أن أطلق صفّارته. فاستيقظتْ حفيدتي تفرك عينيها وتنظر حولها تحاول الاستيعاب، هل القطار يتحرك أم واقف. فنظرتْ إلي وسألت:-

---"جدتي، هل وصلنا للوطن؟"

-"ليس بعد يا حبيبتي، فلا يزال الطريق إليه طويلًا."